الفصل الثالث

الأسلوب الجبرانى

تردد هذا التعبير – الأسلوب الجبرانى ، أو الإنشاء الجبرانى – خلال النصف الأول من هذا القرن بكثرة ؛ وهو منسوب إلى جبران خليل جبران ، زعيم مدرسة التجديد فى الأدب المهجرى ، والمؤثر الأول فى اتجاهاته الفكرية الإنسانية والتأملية ، وفى استلهام الطبيعة ، والتحرر الفكرى والتعبيرى ، وفى الخيال المحلّق ، والرمزية الشفافة الحلوة . غير أن الذين أطلقوا هذه التسمية فى الشرق لم يكونوا يقصدون بها جبران وحده ، بل كانوا يشملون بها إخوان جبران فى المهجر أيضاً ، ، والمتأثرين بأدبه وأسلوبه البيانى من أبناء الشرق العربى .

والحقيقة هى أن أسلوب جبران التعبيرى ، بخيالاته الرقيقة الحلوة ، وعبارته البسيطة الغنية بالموسيقى ، قد أحدثت فى العالم العربى هزة تفتحت لها نفوس الأجيال الجديدة من حملة الأقلام ، وصدى تجاوبت معه قلوبهم وعواطفهم . وسرعان ما انتشر هذا الأسلوب الجبرانى فى الشرق العربى ، برغم الحملات التى قام بها المحافظون والحاقدون ليحدوا من انتشارها ، أو ليعوقوا من اندفاعها .

ولكن الأقلام الجديدة اندفعت فى تقليدها للغة جبران وأسلوبه الخيالى الموسيقى ، وأخذت تستعمل ألفاظه وتعابيره الجديدة ، واستعاراته وتشابيهه وكناياته التى لم يألفها العرب من قبل ، من مثل (الذات المجنحة – خمرة السنين – سكينة الليل – ثوب السكينة – حقل القلب – دموع الشفقة – مراشف الأرواح – تكلمت الطبيعة بألسنة السواقى ، وابتسمت بشفاه الأزهار – زلزال عنيف حبلت به الأرض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء – مرور أنامل النسيم على ثغر الوردة – تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق – تضمحل الأيام الغابرة فى زوايا غرفتى اضمحلال أناشيد السواقى فى الأودية البعيدة الخالية – سرت على طريق الحياة مثل صبى ضائع بين الأحياء المهجورة – نفسى كالنواة المطروحة

على الصخرة ، لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحييها – من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء – وادى ظل الحياة – نهر الدماء والدموع المتراكض كأحلام المجرمين) والكثير جداً سواها من تشبيه المحسوس باللامحسوس ، واستعارة المعنوى للمادى ، والتكنية باللامنظور عن المنظور – أو العكس .

إن الأمثلة القليلة جداً التى قدمناها من الألفاظ والتعابير الجبرانية لا تستطيع – وهى ألفاظ وتعابير مفككة منقولة دون روابط من موضوعات متفرقة لجبران – أن تعطى فكرة واضحة عن الأسلوب الجبرانى ؛ فالأسلوب ليس مجرد ألفاظ وتعابير ، ولكنه طريقة تفكير ، وطريقة تعبير معاً ؛ طريقة إحساس وتخيّل وتمثّل ؛ وهو وسيلة إظهار شخصية الأديب والشاعر والفنان مستقلة متميزة عما عداها .

ولذلك لا بد لنا من شرح هذا الأسلوب الجبرانى الجديد – الذى لم يعد اليوم جديداً ، لأنه أصبح أسلوب الأدب الإبداعى الحاضر .

لم يكن جبران يجرى على طريقة واحدة فى الكتابة . فهو حيناً يكتب خيالا عاطفيًّا مجرداً ، وحيناً أحاسيس واقعة عميقة ، وطوراً يخاطب الناس بالأمثال والرموز والحكم والمواعظ الروحية ، وطوراً بأسلوب التعنيف القاسى ، وتارة يكتب شعراً فلسفيًّا تأمليًّا ، وتارة نثراً شعريًّا موسيقيًّا . غير أن كل هذه الأساليب والطرق التعبيرية كانت تفيض من شخصية متميزة فى تفكيرها وخيالها وروحها وبيانها ، وتجرى بألفاظ شفافة عميقة التأثير ، سواء أكان ما يكتبه نثراً ، أم شعراً ، وسواء أكان أقصوصة ، أم مثلا ، أو حكمة . أو خيالا ، أو تأملات فى الحياة والطبيعة ، وفى الكون وما وراء الكون .

وفى ما يلى نماذج من هذا الأسلوب الجبرانى بأنواعه المختلفة ، تظهر فيها روح جبران المتميزة بطابعها الخاص ، وألفاظ جبران وتعابيره الجديدة الشفافة .

١ – من « الأجنحة المتكسرة » :

« للكآبة أيادٍ حريرية الملامس ، قوية الأعصاب ، تقبض على القلوب

وتؤلمها بالوحدة ؛ فالوحدة حليفة الكآبة ، كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة ، شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم ، وتفتح قلبها لأشعة الفجر ، وتضم أوراقها بمرور خيالات المساء . . .

« فى تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إلىّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون فى صدر رجل مجرم . ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين فى محاسن الحياة ومكروهاتها ، يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ، ونفسه فارغة من العواطف » .

ومنه أيضاً : « إن السماء قد وضعت فى يدى كأساً مفعمة بالخل والعلقم ، وقد تجرعتها صرفاً ، ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلداً لأرى ما فى قاع الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة ، فأنا لا أستحقها ، ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدبّ متنقلا بين الصخور ، ولكنه لا يستطيع أن يسبح محلقاً فى الفضاء ؛ والعيون الرمداء تحدق بالأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة . فلا تحدثنى عن السعادة لأن ذكرها يؤلمنى كالتعاسة ؛ ولا تُصَوِّر لى الهناء لأن ظله يخيفنى كالشقاء ، ولكن انظر إلى الأريك الشعلة المقدسة التى أوقدتها السماء بين رماد صدرى . . .

« إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك القلوب ، أما المحبة المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . . . »

ويلاحظ القارئ كم فى هذه الفقرات القليلة من التعابير الجديدة ، والاستعارات والتشابيه والكنايات التى لم يكن العرب يألفونها من قبل ، ولكنها اليوم أصبحت مألوفة جداً بعد أن أدخلها جبران فى الأدب العربى ، واستساغتها الأقلام الجديدة فاحتضنتها ومضت تكثر من التعبير بها وبأمثالها .

٢ – من كتاب « دمعة وابتسامة » :

« كنت بالأمس كلمة صامتة فى خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة

وقبلة . تلك الدقيقة ، يا حبيبتى ، قد جمعت بين استعدادات نفسى الغابرة وأمانيها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الأرض المظلمة إلى نور النهار . تلك الدقيقة هى من كل حياتى بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة ؛ لأنها جعلت الظلمة فى أعماقى شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة . . . »

ومنه أيضاً يخاطب الريح : « تمرّين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتنا وهى ساكنة .

« تتصاعدين مع الروابى ، وتنخفضين مع الأودية ، وتنبسطين مع السهول والمروج . ففى تصاعدك عزم ، وفى انخفاضك رقة ، وفى انبساطك رشاقة ؛ فكأنك مليك رؤوف يتساهـــل مع الضعفاء الساقطين ويترافع مع الأقوياء المتشامخين .

« فى الخريف تنوحين فى الأودية فتبكى لنواحك الأشجار ، وفى الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفى الربيع تعتلّين وتضعفين ، ولضعفك تستفيق الحقول ، وفى الصيف تتوارين وراء نقاب السكون ، فتخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها .

« أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ، ومن الروابى أرواح الأزهار ؛ وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التى تحتمل أوجاع الحياة بسكينة ، وبسكينة تلتقى بأفراحها .

« أنت تهمسين فى أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم ؛ وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

« أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها ؛ وهكذا يفعل الشعراء المترددون . . . »

* * *

بهذه التعابير الجديدة ، وهذه الخيالات الرائعة ، وهذه الألفاظ الموسيقية ، يتميز أسلوب جبران الجديد ، الذى أصبح أسلوب العصر الحاضر : ففيه الموسيقى ،

وفيه الخيال الجميل ، وفيه الغنى بالمعانى الرقيقة الحلوة غير المألوفة ، وفيه جمال البساطة ورقتها .

* * *

٣ – من كتاب « النبى » – وهو كتاب يعلم الحكمة ، ويعلم الحيـاة ، ويعلم الإنسانية :

« طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمّن يقترف إثماً كأنه ليس منكم ، بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم . ولكنى ، الحق أقول لكم ، كما أن القديس والبارّ لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيعة فى كل منكم ، هكذا الشرير ، والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدنيئة فى كل واحد منكم . وكما أن ورقة الشجرة الصغيرة لا تستطيع أن تحوّل لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة ومعرفتها الكامنة فى أعماقها ، هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف إثماً بدون إرادتكم الخفية ، ومعرفتكم التى هى فى قلوبكم ؛ فإنكم تسيرون معاً فى موكب واحد إلى ذاتكم الإلهية . .

« كثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه ، كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التى كان يجب أن يحملها الأبرياء وغير المحكومين . لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حداً يفصل بين الأشرار والصالحين ، أو الأبرياء والمذنبين ، لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس ؛ كما أن الخيط الأبيض والخيط الأسود ينسجان معاً فى نول واحد ، فإذا انقطع الخيط الأسود ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ، ثم يرجع إلى نوله يفحصه وينظفه . . .

« لذلك ، إنْ رغب أحد منكم فى أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة ، فلينظر أولا إلى أعماق جذورها ، وهو ولا شك واجد ان جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة ، المثمرة وغير المثمرة ، كلها مشتبكة معاً فى قلب الأرض الصامت » .

* * *

هذه الرموز الجميلة البسيطة الواضحة ، وهذه الحكم الدالة على عمق النظرة وبعد مراميها ، كان لها أبعد الأثر فى نشر الأسلوب الجبرانى على الأقلام الجديدة ،

وإغناء الأدب العربى الحديث بالأفكار والمعانى الجديدة ، والنظرات الإنسانية الحكيمة فى شؤون الحياة .

ولقد تكلم جبران بالرموز كثيراً ، بل لعله أول من تكلم بها بين أدباء العرب فى العصر الحديث ، ومن عنده شقت طريقها إلى الأدب العربى ، وتأثر بها أدباء اليوم كل التأثر .

ولعل أول من تأثر بها كل التأثر زميل جبران ورفيقه ، ميخائيل نعيمه . وهذه المعانى عينها التى اقتطفتها من « النبى » تكررت مراراً كثيرة فى كتب نعيمه ، وبتعابير جد مشابهة لتعابير جبران .

غير أن رموز جبران كانت فى بعض الأحيان تبدو غامضة ، بحيث لا يتوصل القارئ بسهولة إلى إدراك معانيها . وأكثر ما جاء ذلك فى كتابه « آلهة الأرض » بشكل خاص ، فليس من السهـــل إدراك الأفكار والمعانى الكامنة وراء محاورة الآلهة الثلاثة .

وكما ابتدع جبران فى الأدب العربى الحديث أسلوب الرمز الشفاف ، ليعطى به الناس أسرار الحياة والوجود كما وعاها فى ضميره ، كذلك ابتدع – أو كان من أوائل من ابتدعوا – فى هذا الأدب العربى أسلوب النثر الشعرى ، ذى العبارة الموسيقية القصيرة ؛ وهو ما يدعونه بالشعر المنثور ، وقد أخذ هذه الطريقة عن الأدب الغربى ، أو عن والت ويتمان الأمريكى ، وسار عليها هو والريحانى فى زمن واحد ؛ أو لعلها من تأثير نيتشه الألمانى فى « هكذا تكلم زرادشت » .

من ذلك قوله فى « البدائع والطرائف » مناجياً الأرض :

« ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناتك !
ما أشد حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم
الضائعين بين ما بلغوا إليه وما قصروا عنه !
نحن نضجّ وأنت تضحكين
نحن نذهب وأنت تكفّرين
نحن نجدّف وأنت تباركين
نحن ننجّس وأنت تقدّسين

نحن نهجع ولا نحلم ، وأنت تحلمين فى سهرك السرمدى
نحن نكلّم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم
نحن نزرع راحاتك بالعظام والجماجم ، وأنت تستنبتينها حوراً وصفصافاً
نحن نستودعك الجيف ، وأنت تملئين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد
نحن نصبغ وجهك بالدم ، وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر
نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف ، وأنت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق .
ما أوسع صدرك أيتها الأرض ، وما أكثر انعطافك ! »

* * *

هذه نماذج من نثر جبران ، وهو الذى أطلِق عليه اسم « النثر الجبرانى » أو « الإنشاء الجبرانى » أو « الأسلوب الجبرانى » . وعلى الرغم من أن شعر جبران لا يختلف من حيث الروح والعبارة عن نثره ، فلا نعتقد أن أحداً كان يعنيه بهذه التسمية ، بل كانت التسمية مقتصرة على نثره وحده .

على أننا نقدّم فى ما يلى نموذجاً من شعر جبران أيضاً ، ليرى فيه القارئ أن شعره لا يختلف عن نثره فى أسلوب التعبير .

والنموذج من قصيدته « يا نفس » التى يقول فيها :

يا نفس لــــولا مَطْمعــى بالخلْــد ما كنتُ أعــى
لحنًا تغنيه الدّهُـور
بل كنتُ أنهى حاضرى قسْراً فيغـــدو ظاهرى
سرًّا تواريــهِ القُبُور
يا نفس لو لم أغتسِلْ بالـــــدمع أو لم يكتحِـلْ
جفنى بأشباح السقام
لعشتُ أعمى ، وعـــلى بصـــيرتى ظُفْـرٌ فَلا
أرى سوى وجه الظلام
يا نفسِ إنْ قالَ الجهُـول الروحُ كالجسم تزُول
وما يزولُ لا يعود

قـولى له إنّ الزهُـــــور تمضى ولـــكنَّ البُـــذور
تبقى ، وذا كُنْهُ الخلُود

من كل هذه النماذج المتقدمة يحاول الناقد العصرى أن يبحث عن سبب للحملات العنيفة التى أثيرت فى وجه الأدب المهجرى – والجبرانى منه بنوع خاص – والتهم الكثيرة التى كيلت للغته ولمعانيه ، ولبيانه العربى الجميل ، وعبثاً يبحث عن ذلك ، فليس فى هذا شىء مما يؤخذ على لغته ونصاعة بيانه . إنه لبيان مشرق ، وإنها للغة جميلة ، وكل ما فى الأمر أنها لغة جديدة فى مفهوم رجال العصور السابقة ، لأن معانيها أبكار ، واستعاراتها وتشابيهها وكناياتها لم تطرق من قبل ولم تألفها الأسماع . وغير المألوف شىء ، والفاسد والخاطئ شىء آخر .